العقيدة الإسلامية ودورها في الإصلاح والتغيير

د. عادل شافي عيفان

د. طه خالد عرب

الجامعة العراقية/ كلية العلوم الاسلامية

Islamic Doctrine and its role in reforming and changing

Dr. Adil Shafi

Dr. Taha Khalid Mohammed Arab

Aliraqia University
College of Islamic Sciences

Research Summary:

Praise be to God alone, and prayer and peace of INPE after him and after: The Islamic faith is a gate change in society and human psychology would otherwise have been able to man that understands the greatness of the Creator and his qualities and his actions that have emerged effects are evident in the orderly universe Almnoriq

The issue of reform and change with it being innate issue of the greatest nation on the duties of individuals and groups have a role desired by all Elites of every nation is trying to do its part entrusted with the

Praise be to God alone, and prayer and peace of INPE after him and his family and companions either:

When he was the true faith is out of the religion of Islam and the basis of the religion Wright to be the subject of the lecture is known evidence of legitimacy of the Quran and Sunnah that the words and deeds but valid and accepted if issued by the correct doctrine van was dogma incorrect champion Mitafra by the actions and words and verses in this sense many

This issue is with great importance, but he encountered a problem difference between the advocates of change and reformers themselves a difference on issues of districts unit and several views of a single interface if the dispute is in the form of diversity in which each one complements the other the role of a difference to the plausible but became variation antagonism which jostling bodies and groups as well as individuals and leaders.

ملخص البحث:

ثقافة التغيير التي تعتبر عاملا حقيقيا لأي حراك شعبي تقوم أساسا على عناصر مهمة من أهمها الشعور بالحرية.

ولا أبالغ إذا قلت أن المفردة الأولى تداولا في الخطاب أثناء الثورات العربية هي كلمة (حرية).

إن تحرك الشعوب والجماهير يستدعي في الأصل هذه القيمة، ومن هنا فلابد أن تتحقق الحرية في المجتمعات بتحرير القلوب أولا تحريرا حقيقيا.

لكن تبقى أسئلة كبيرة، مثل ما ضابط هذه الحرية؟ ما حدودها؟ كيف يمكن تحرير القلوب تحريريا حقيقيا مع بقاء روح المسئولية والانضباط، وعدم الوقوع في الفوضى والانفلات؟

إن المتأمل لمنهج الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه يجد إجابات على هذه التساؤلات، وهو ما يمكن تلمسه في هذا المبحث.

ولابد هنا من بيان أمرين: طبيعة النفس في التصور الإسلامي، ثم مفهوم الحرية على ما تقرر في حقيقة العبودية وحقيقة النفس الإنسانية.

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد: فإن العقيدة الاسلامية هي بوابة التغيير في المجتمع والنفس البشرية ،ولولاها لما استطاع الانسان ان يدرك عظمة الخالق وصفاته وأفعاله التي برزت آثارها واضحة للعيان في الكون المنظم المنورق، ومسألة الإصلاح والتغيير مع كونها قضية فطرية فإنها من أعظم الواجبات على الأمة جماعات وأفرادا، وهو دور تنشده كل النخب من كل أمة، وتسعى إلى القيام بدورها المنوط بها في ذلك.

وهذه المسألة مع عظيم أهميتها إلا أنه تعترضها مشكلة الاختلاف بين دعاة التغيير والمصلحين أنفسهم، وهو اختلاف حول قضايا لا قضية وحدة، ومن جهات عدة لا جهة واحدة، ولو أن الخلاف يكون في صورة اختلاف التنوع الذي يكمل فيه كل واحد دور الآخر لكان مقبولا، لكنه صار اختلاف تضاد تتصارع فيه الجهات والفئات فضلا عن الأفراد والقيادات.

وعليه فإن من المهمات الكبيرة على الباحثين محاولة تحديد أصول منهجية تكوّن أصلا تجتمع عليه مشاريع التغيير ثم تتفرع بحسب تخصصاتها وتفرعاتها، وأقصد بالمنهج هنا أي الثابت، وإلا فوسائل التغيير متغيرة ومتجددة متطورة، ولا يمكن اختزالها في ثوابت أبدا.

والمتأمل لمشاريع التغيير الكبرى قديما وحديثا يجد ثوابت مشتركة فيها، ومن ذلك ثابت العقيدة التي يحملها أصحاب تلك المشاريع، والتي هي جزء من فكرهم وثقافتهم التي يحملونها، وتشكل تأثيرا بالغا في نجاح مشروعهم وخاصة العقيدة الإسلامية.

وبما أننا نكتب في بيئة إسلامية، وأول المستفيد من هذا المؤتمر المبارك هم جماهير منطقتنا الكبرى هذه، فإن البحث سيركز على دور العقيدة الإسلامية في الإصلاح والتغيير، ومدى أثرها فيه.

وسيكون البحث مكونا من ثلاثة مباحث كما يلي:

المبحث الأول: العقيدة والتغيير عند الأنبياء، وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول:** منزلة العقيدة في التغيير عند الأنبياء.
- **المطلب الثاني:** حقيقة العبودية لله تعالى.

المبحث الثاني: العقيدة وحرية النفس الإنسانية، وفيه المطلبان التاليان:

- **المطلب الأول:** طبيعة النفس الإنسانية.
- **المطلب الثاني:** العبودية لله تعالى والحرية الإنسانية.

المبحث الثالث: تحرير الإنسان في القرآن الكريم، وفيه مطلبان:

- **المطلب الأول:** تحرير الفرد.
- **المطلب الثاني:** تحرير الجماعة.

وفي نهاية المطاف احمد الله عز وجل أن رسم لنا خارطة نسير عليها، من خلال توجيهنا للقران والسنة السنية، فأصلي واسلم على المبعوث رحمة للعالمين ان ولي لك والقادر عليه وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم.

تمهيد:

تعريف العقيدة:

- لغة: مِن العَقْد، وهو الرَّبط والشَّد بقوَّة، ومنه الإحكام والإبرام، والعَقْد نقيض الحَلّ. وما عقد عليه الإنسان قلبَه جازمًا فهو عَقيدَة[1].
- اصطلاحا:

(أ) الإيمان الجازم، والحُكم القاطع، الذي لا يتطرَّق إليه الشَّك لدى المعتقد، بصرف النَّظر عن نوع الاعتقاد حقّ أم باطل، وسُمِّي عقيدة لأن الإنسان يعقد عليه قلبه.

(ب) حُكم الذِّهن الجازم، فإن طابق الواقع فصحيح، وإن خالف الواقع ففاسد، فاعتقادنا أنَّ الله واحد صحيح، بينما اعتقاد النَّصارى أن الله ثالث ثلاثة باطل، لأنه مخالف للواقع[٢].

- الاصطلاح الإسلامي: الإيمان الجازم بالله، وما يجب له في ألوهيَّته وربوبيَّته، وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَر خيره وشرِّه، وبكلِّ ما جاءت به النُّصوص الصَّحيحة مِن أصول الدِّين وأمور الغيب وأخباره، وما أجمع عليه السَّلف الصَّالح، والتَّسليم لله – تعالى– في الحُكم والأمر والقَدَر والشَّرع، ولرسوله ﷺ بالطَّاعة والتَّحكيم والإتِّباع[٣].

للعقيدة الإسلاميَّة مزايا خاصَّة، نذكر منها:

- سَلامة المصدر: لاعتمادها على الكِتاب والسُّنة، وإجماع السَّلف وأقوالهم فحسب، وهذه الخاصيَّة تنفرد بها العقيدة الإسلاميَّة عن سائر العقائد الأخرى، التي يعتمد أصحابها على العقل والنَّظر، أو على الحدس والإلهام والرؤى والأحلام، أو عن طريق أشخاص يدَّعون لهم العِصمة، أو غير ذلك مِن المصادر البشريَّة التي يحكِّمونها في أمور الغيب.
- تقوم على التَّسليم لله تعالى، ولرسوله ﷺ: وهو الإيمان الجازم بكلِّ ما جاء في كتاب الله، وسنَّة نبيِّه ﷺ مِن أمور غيبيَّة لا يمكن للعقل إدراكها، والتَّسليم بوجودها، دون إرهاق العقل لإثبات ذلك.
- موافقتها للفطرة القويمة والعقل السَّليم: فيشعر المرء في ظلالها بالراحة والسَّكينة، بينما نجد المُبتدعة في ضلال وشكٍّ وحيرة، فجلَّ ما جاءوا به يخالف الفطرة ويناقض العقل.
- اتصال سندها بالرسول ﷺ والصَّحابة والتَّابعين وأئمة الهُدى، قولا وعملا وعِلما واعتقادًا: فكلّ قضيَّة من قضايا العقيدة لها مرجعيتها الصَّحيحة مِن سنَّة رسول الله ﷺ أو صحابته الكِرام والتَّابعين وأئمة الهدى.
- الوضوح والبيان: فمسائلها وألفاظها ومعانيها واضحة، لا لبس فيها ولا غموض، يَسْهل فهمها بخلاف عقائد بعض الفِرق الضَّالة.
- سلامتها مِن الاضطراب والتَّناقض: وذلك لسلامة مَصدرها، فلا قول يناقض آخر، ولا مسألة تنفي أخرى؛ قال محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي صنَّفه (أقسام اللذات):

تأمَّلتُ الطرق الكلاميَّة، والمناهج الفلسفيَّة، فما رأيتها تُشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيتُ أقرب الطرق طريقة القرآن.

وكان يردِّد قائلا:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشةٍ مِن جسومنا وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا قيل وقال

العقيدة: هي الضابط الأمين الذي يحكم التصرفات، ويوجه السلوك، ويتوقف على مدى انضباطها وإحكامها كل ما يصدر عن النفس من كلمات أو حركات، بل حتى الخلجات التي تساور القلب والمشاعر التي تعمل في جنبات النفس، والهواجس التي تمر في الخيال، هذه كلها تتوقف على هذا الجهاز الحساس.

وباختصار: فالعقيدة هي دماغ التصرفات، فإذا تعطل جزء منها أحدث فسادا كبيرا في التصرفات، وانفراجا هائلا عن سوي الصراط.

ولذا فقد عني القرآن الكريم ببناء العقيدة، فلا تكاد تخلو أية سورة -مكية كانت أو مدنية- من شد الإنسان بكليته إلى ربه، وربط كل تصرف بهذه العقيدة التي تمثل القاعدة الأساسية لهذا الدين الذي لا يقوم بدونها، وبخاصة السور المكية التي أفردت لبناء هذه العقيدة، فلقد كانت العقيدة هي الموضوع الوحيد الذي عالجته السور المكية.

وعلى هذا فإن كل الإنحرافات التي نعانيها في سلوكنا - أفرادا أو جماعات- راجعة بكليتها إلى الإنحراف في التصور العقدي، فالناس في هذه الأيام بحاجة إلى بناء العقيدة من جديد، وإلى تصحيح التصور الإعتقادي، فلا بد من إفراد الله -سبحانه- بالألوهية، ولا بد من أن تستقر عظمة الله عزوجل في الأعماق، وأن يعمر النفوس حبه، ولا مناص من أن تحيا القلوب وهي تستشعر هيبته وجلاله [٤].

المبحث الأول
العقيدة والتغيير عند الأنبياء

هذا المبحث يتناول دور العقيدة في دعوة وإصلاح وتغيير الأنبياء – عليهم صلوات الله وسلامه– وحقيقة العبودية التي تقوم عليها هذه العقيدة كما هو من الأصول المقررة في منهجهم الدعوي، ولما كان هذا البحث يقوم على بيان دور العقيدة في التغيير، كان لزاما أن نستند فيه إلى دعاتها ومنهجهم وهداهم، وأعظمهم هم الأنبياء، ودراسة هذه القضية ستؤسس لما يراد تقريره في المبحثين التاليين في أثر العقيدة في الحرية والتحرير.

ولما كانت الحرية أساسا كبيرا في التغيير وتحريك الجماهير؛ كان من المهم هنا البحث في عامل العقيدة في هذا الباب، وعن طبيعة وحقيقة هذه العقيدة التي نتكلم عنها بالحرية بكل ما تحمله هذه الكلمة من انعتاق وانطلاق برشاد وهدى وسداد.

المطلب الأول: منزلة العقيدة في التغيير عند الأنبياء.

تقدم أن دعوات الأنبياء إصلاح وتغيير، وأن لهم منهجا كبيرا مرسوما في ذلك، وليس هذا البحث مكانا لاستقصاء قواعد ومعالم هذا المنهج، ويكفي هنا الكلام في قاعدة هذا المنهج وأسه، وهو البدء بالعقيدة دعوة وتربية.

وهذا الأصل تضمن أمرين؛ هما: الابتداء بالعقيدة أولا، والتربية عليها ثانيا، وليس مجرد الدعوة العامة.

لقد كانت العقيدة الركيزة الأولى في دعوتهم وتربية الجماهير المدعوة عليها، وأهم ركائز هذا الاعتقاد هو التوحيد، توحيد الله سبحانه بكل معاني هذا التوحيد، وخاصة ثمرته وغايته وهو العبودية التامة لله رب العالمين.

فبهذا تكون العبودية الحقة لله رب العالمين وإفراده بها هو أصل هذا الدين وأساسه وأول أركانه.

وقد دلت النصوص الشرعية سواء على وجه الإجمال أو التفصيل[٥] على أن كل الأنبياء ابتدؤوا دعوتهم بها، ومن ذلك ما يلي:

أ- **الأدلة المجملة:** منها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾.

ب- **الأدلة المفصلة:** فهي ما حكاه الله تعالى من كلام الأنبياء لأقوامهم حين يبلغونهم رسالة الله، فإنها تدل على أن أول ما بلغوهم إياه هو الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، فمن ذلك قوله تعالى عن نوح ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾، وقوله عن صالح ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾، وقوله تعالى عن هود ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾، وحكى الله تعالى قول موسى عليه السلام ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾، وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾.

ولما بعث معاذا إلى اليمن قال «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله فإن هم أجابوك لذلك فأخبرهم..»الحديث[٦].

وفي الأدلة المفصلة تأتي قصص الأنبياء العملية وحوارات أقوامهم معهم واضحة في هذا الباب، فنجد أن أول دعوتهم وأعظم تركيزهم هو في الدعوة إلى إفراد الله بالعبودية، ثم ما يتصل بها من إثبات اليوم الآخر والنبوات وغيرها من عقائد.

لنضرب مثلا بقصة نوح، النصوص تدل على أنه لبث في قومه تلك المدة الطويلة يدعوهم إلى التوحيد والخروج من ربقة الشرك المتضمن العبودية لغير الله، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت:١٤]، ودعوته كلها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ ﴾ [نوح:١-٣]، وما كان ردهم إلا الدفاع عن أصنامهم ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح:٢٣].

وإبراهيم عليه السلام، تكرر النصوص قصته من تحطيم الأصنام، وهي في أول دعوته، قال تعالى: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ

﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنبياء:٥٧-٦٠].

إنها معركتهما ومعركة كل الأنبياء بعدهما، الدعوة إلى عبادة الله تعالى والثورة على عبادة الأصنام أيا كانت هذه الأصنام.

وأما سيرة نبينا ﷺ وعلاقتها بالتوحيد والعبودية والتربية عليه؛ فهو أوضح وأظهر وأشهر من أن نحتاج إلى تفصيله هنا، ويكفي فقط ذكره لتنبيه القارئ الكريم عليها.

وهكذا كل سير الأنبياء، تبتدئ بالدعوة إلى العقيدة وتربية الأتباع عليها، ربط القلوب بالعبودية لله تعالى وحده، وهو ما يدعو فعلا إلى السؤال الكبير، لماذا هذا؟ وما أثرها في جعل أتباعهم فعلا يقدمون مل التحيات الكبيرة في سبيل دينهم ودعوتهم، وعدم الخواف من طواغيت أقوامهم؟!!

وهو ما نحاول الإجابة عليه في المبحثين القادمين إن شاء الله تعالى، لكن يبقى هنا أمران هما:

أولهما: لم تكن التربية على العبودية مسألة عقدية وحيدة في دعوة الأنبياء، بل هناك مسائل أخرى أهمها الإيمان باليوم الآخر، وهو من أهم مسائل الاعتقاد التي تحرر النفوس، فتنعتق من التعلق بالدنيا وملذاتها، وهو ما تكرر في خطاب الأنبياء – كم تقدم– وهو مؤثر عظيم في تحرير النفوس وانعتاقها.

وثانيهما: لا يعني بعد هذا كله أن الأنبياء لم يصلحوا بقية الميادين الأخرى في الحياة، بل أصلحوا فيها وبذلوا في ذلك، فنجد مثلا أن لوطا عليه السلام دعا قومه إلى الفضيلة وإصلاح أخلاقهم، وخرج داعيا إلى حرب الشذوذ، وهي جريمتهم الكبرى التي اشتهروا بها على مر التاريخ، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت:٢٨-٢٩].

وهذا شعيب يأتي داعية إلى العدالة ومنع الظلم، فقد كان قومه اشتهروا بالتطفيف في الميزان، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ

جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف:٨٥].

فبان بهذا قيام الأنبياء بإصلاح مشاكل عصرهم الكبرى وحرب قيم الجاهليات في الميادين الكبرى، لكن إصلاح هذه الميادين جاء بعد إعلانهم الدعوة إلى التوحيد أولا، وتحقيق العبودية التامة لله تعالى، ويدل على هذا عموم الآيات الدالة على بدئهم بالدعوة إلى التوحيد، ومثل قوله تعالى لما حكى كلام شعيب في الآية السابقة، فلقد بدأ فيها أولا بتوحيد العبودية لله تعالى.

المطلب الثاني: حقيقة العبودية لله تعالى.

عرفها السيد الجرجاني بأنها: **العبودية الوفاء بالعهود وحفظ الحدود والرضا بالموجود والصبر على المفقود.**

تقدم أن أصل العقيدة الإسلامية هو توحيد الله تعالى بالعبودية وكل أنواع التوحيد.

فما حقيقة هذه العبودية، ولماذا اهتم الأنبياء بتقريرها أولا من جهة التغيير والإصلاح؟

والجواب على هذا يوصلنا إلى علاقتها بالحرية وتحرير الإنسان.

وقبل بيان هذا يشار فقط هنا أن إلى قاعدة عظيمة، وهي أصل من أصول الإسلام الكبار، وهي إثبات فقر العبيد إلى الله تعالى، وخاصة بنو آدم، وهو ما يقرره القرآن في قوله الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

وتقوم هذه القاعدة على إثبات أن الله تعالى هو الغني الغنى التام، وغناه تعالى غنى ذاتي، ونحن الفقراء إليه تعالى، وفقرنا إليه فقر ذاتي لا يمكننا أن ننفك عنه أبدا، فنحن الفقراء إلى الله تعالى، وهو الغني عنا تماما، ولو شاء لذهب بنا ولا يضره ذلك شيئا ولا ينقص من ملكه شيء كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِف مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الإنعام:١٣٣] وقال تعالى: ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء:١٣٣]، ويقول سبحانه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠].

يقول الإمام ابن تيمية مقررا هذا: «بل فقر الأشياء إلى خالقها لازم لها لا يحتاج إلى علة، كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر في اتصافه بالغنى إلى علة، وكذلك المخلوق لا يفتقر في اتصافه بالفقر إلى علة، بل هو فقير لذاته، لا تكون ذاته إلا فقيرة فقراً لازماً لها، ولا يستغني إلا بالله، وهذا من معاني (الصمد)، وهو الذي يفتقر إليه كل شيء، ويستغني عن كل شيء، بل الأشياء مفتقرة من جهة ربوبيته، ومن جهة إلهيته، فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم، وهذا تحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥]، فلو لم يخلق شيئاً بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء، وكل الأعمال إن لم تكن لأجله –فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته– وإلا كانت أعمالاً فاسدة[٧]».

وقد تضمنت أعظم سور القرآن وهي سورة الفاتحة هذا المعنى، مقررة جهتي فقرنا إلى الله تعالى، فإن فقرنا إلى الله تعالى – كما ذكر ابن تيمية في نصه السابق– من جهتين: من جهة ربوبيته ومن جهة ألوهيته، تضمنهما قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وهذه القاعدة الكبيرة – كما تقدم– تتضمن أصلين مهمين هما الأول: وجوب التوكل عليه والاستعانة به، والثاني: وجوب عبادته تعالى والإنابة إليه، وهما لازما جهتي فقرنا إليه تعالى كما يبينه ما يلي، والإمام ابن تيمية ينص على أن تحقيق محبة الله – وهي أصل معنى العبادة كما سيأتي إن شاء الله تعالى– مع تحقيق التوكل والاستعانة هو حقيقة دين الإسلام[٨]، وهما يشكلان نصفي الدين كما يقرره ابن القيم بقوله «التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة[٩]».

المقصد الأول– وجوب العبودية لله تعالى وتألهه وحبه:

وهو الأصل الأول من أصلي الافتقار إلى الله تعالى، وهو لازم فقرنا إلى الله تعالى من جهة ألوهيته، أي أننا فقراء إلى الله تعالى من جهة العبودية والحب، وأنه لا صلاح لقلوبنا ولا سعادة ولا هناء ولا طمأنينة إلا بتحقيق حبه تعالى والعبودية له.

يقول ابن تيمية «القلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل، وهي العلة الفاعلة.

فالقلب لا يصلح ولا يُفلح ولا يلتذّ ولا يُسَرُّ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر

ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة..[١٠]».

وهذا الأصل أصل مهم، بل هو الأساس هنا، والحاجة إليه تعالى من جهته أعظم من الحاجة من جهة الأصل التالي كما سيأتي – إن شاء الله تعالى–.

والقاعدة المهمة هنا والتي يجب التركيز عليها كثيرا هي بيان حقيقة العبودية، وتأسيس معناها على الحب والقصد والإرادة، وأن الغاية التي دلت النصوص الشرعية على أنها أول الواجبات، والأمر الذي خلقنا له، والذي لأجله الدنيا والآخرة هي العبادة المتضمنة لهذا المحرّك للنفوس غاية التضمن وأكمله.

إن معنى هذه العبادة ابتداء هو الحب، لكن مع وصفها بأنها أعلى مقاماته، فهو أصلها مع الذل والخضوع، فالعبادة كما يقرر أهل العلم أعلى أنواع الحب، وهو "التتيم"، يقول ابن تيمية « لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له، فإن آخر مراتب الحب هو (التتيم)، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب، ثم العشق، وآخرها التتيم، يقال: تيم الله ؛ أي عبد الله، فالمتيم المعبد لمحبوبه[١١]».

فلابد من المحبة والخضوع حتى تتحقق العبادة[١٢]، وهذا ما يتضمنه معنى الإله، فإنه الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم[١٣]، وهي حقيقة العبادة كما تقدم.

فالعبادة تقوم على ركنين: كمال الحب مع كمال الذل، وقد مر قول ابن تيمية في نص السابق «لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له..[١٤]».

فالأصل في العبودية – كما تقدم – المحبة الكاملة، وهي التي تضمنتها العبادة، يقول الشيخ مؤكدا ذلك «فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي ما في عبادته وحده لا شريك له إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل[١٥]».

فنفس المحبة أصل عبادته تعالى، والإشراك فيها أصل الإشراك في العبادة[١٦]، ولذلك فحتى الأصل الثاني للعبادة والذي هو (الذل) يرجع إلى هذا الأصل أيضا[١٧].

وهذه المحبة هي المحبة الدينية، وهي محبة المحبوب لذاته، المراد المقصود لذاته، وكذلك محبة ما يوصل إليه، وهي المقصودة في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥]، وفي الحديث المتفق عليه في الصحيحين قال «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان» وفي رواية في الصحيح «لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقي في النار» وغيرها من النصوص التي تأتي بعد قليل.

وهذه المحبة هي المحبة التي حققها الأنبياء وأتباعهم، فهم أشد الناس حبا لله تعالى – كما تقدم في النصوص الآنفة الذكر– بل ليس لمحبتهم لله تعالى حد تنتهي إليه [١٨]، كما ان الله تعالى يحبهم، وهذا يعني أن أعظم المحاب الموجودة هي محبة الأنبياء وأتباعهم لله تعالى، ومحبته هو تعالى – كما يليق بجلاله– لهم.

إن حب الله تعالى لذاته المحبة الكاملة هو أصل الدين بناء على ما قررته نصوص الشرع[١٩]، بل إن «جماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها والنهي عن هذه المحبات ولوازمها وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص أهل النوعين[٢٠]».

وهذا هو معنى افتقار القلب إلى الله تعالى، وأنه – كما مر – مفتقر إلى الله تعالى من جهتين: العبادة، وهي هذه الجهة المذكورة هنا، ومن جهة التوكل عليه والاستعانة به، ولا تتم العبودية الحقة إلا بهما، وهي ما تقوم عليه حقيقة دين الإسلام كما تقدم[٢١].

وهذه المحبة تكون بذلك أصل دعوة جميع المرسلين – كما تقدم – يقول ابن تيمية «وكذلك كونه محبوبا لذاته هو أصل دين الرسل، فإنهم كلهم دعوا إلى عبادة الله وحده وأن لا إله إلا هو، والإله هو المستحق أن يعبد، والعبادة لا تكون إلا بتعظيم ومحبة، وإلا فمن عمل لغيره لعوض يعطيه إياه ولم يكن يحبه لم يكن عابدا له، وقد قال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة:١٦٥][٢٢]».

وهو ما فطر الله تعالى عباده عليه، بل هو أعظم شيء فطر العباد عليه، كما قال تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم:٣٠].

وقال النبي ﷺ «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟**[٢٣]».

وتقرير أن الله تعالى خلقنا لعبادته، وأن أصل العبودية هو الحب، وأنه تعالى خلق أنفسنا مفطورة على الحب – كما سيأتي–، بل أصل حياتها وحركتها هو الحب، فلا بد أن تحب، يقرر النتيجة الكبيرة لهاتين المقدمتين وهي وجوب تحريك قلوبنا إلى الله تعالى بالحب لأن ذلك هو حقيقة وأصل العبودية التي خلقنا لها وأمرنا بها، وأننا لو لم نحرك قلوبنا إلى الله تعالى بذلك تحركت لغيره فحصل الشرك الذي هو في الحقيقة الرق والاستعباد لغير الله تعالى، وهذه النتيجة هي أصل الكلام في حقيقة الحرية وهو ما يوضحه المبحث التالي.

المقصد الثاني– وجوب التوكل على الله تعالى والاستعانة به:

هذا الأصل هو الأصل الثاني من أصول الافتقار إلى الله تعالى، فهو لازم الفقر إلى الله من جهة الربوبية، فهو يستند إلى ربوبية الله تعالى وملكه وتصرفه وغناه، وأنه تعالى خالقنا ومربينا بنعمه وهادينا ورازقنا، فلا وجود أصلا للمخلوق ولا رزق ولا نعمة ولا هداية ولاصلاح إلا بالاعتماد على الله تعالى، ولولاه لما حصل لنا شيء من ذلك أبدا، والقرآن الكريم مليء بتقرير هذا المستند العظيم، بل وأعظم الآيات في القرآن هي ما تتضمن إثبات هذا الأصل الكبير.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة:٢]، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]. وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٨].

والقرآن مع كثرة نصوصه في إثبات ربوبية الله تعالى يقرر وجوب التوكل **على الله تعالى** والاستعانة به، **والتوكل هو: التوكل هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس.**، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال ﴿ وَعَلَى

ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣]، وقوله عز وجل: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [التوبة:٥١]، وقال تعالى في الاستعانة ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨].

وهذا هو معنى قول الله تعالى فيما يرويه عنه نبينا ﷺ «يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم..[٢٤]».

ومما يوجب التوكل على الله تعالى، أنه مع كل ما تقدت الإشارة إليه فإنه تعالى الأعلم بنا وبما يصلحنا، وهو الرحيم بعباده تعالى.

ومن هنا كان الواجب على العبد رفع كل حاجاته إلى الله تعالى مع الثقة فيه تعالى، وعدم تعلقه بالمخلوقين، بل «.. ما رجا أحدٌ مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ [الحج:٣١][٢٥]».

المبحث الثاني
العقيدة وحرية النفس الإنسانية

ثقافة التغيير التي تعتبر عاملا حقيقيا لأي حراك شعبي تقوم أساسا على عناصر مهمة من أهمها الشعور بالحرية.

ولا أبالغ إذا قلت أن المفردة الأولى تداولا في الخطاب أثناء الثورات العربية هي كلمة (حرية).

إن تحرك الشعوب والجماهير يستدعي في الأصل هذه القيمة، ومن هنا فلابد أن تتحقق الحرية في المجتمعات بتحرير القلوب أولا تحريرا حقيقيا.

لكن تبقى أسئلة كبيرة، مثل ما ضابط هذه الحرية ؟ ما حدودها ؟ كيف يمكن تحرير القلوب تحريريا حقيقيا مع بقاء روح المسئولية والانضباط، وعدم الوقوع في الفوضى والانفلات؟

إن المتأمل لمنهج الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه يجد إجابات على هذه التساؤلات، وهو ما يمكن تلمسه في هذا المبحث.

ولابد هنا من بيان أمرين: طبيعة النفس في التصور الإسلامي، ثم مفهوم الحرية على ما تقرر في حقيقة العبودية وحقيقة النفس الإنسانية.

المطلب الأول- طبيعة النفس الإنسانية.

أصل العبودية هو الحب الكامل كما تقدم في المبحث السابق، فما علاقة النفس الإنسانية بهذه القضية؟

القاعدة الكبيرة هنا أنه إذا كانت النفوس خلقت لهذه الغاية العظيمة، والله تعالى حكيم، فلابد أن تكون طبيعتها موافقة لهذه الغاية لتقوم به.

وسنستند كثيرا هنا إلى كلام الإمام ابن تيمية، فقد أطال الكلام فيها وفصل وبين.

وابتداء؛ النفس أو الروح الإنسانية من أعظم ما خلقه تعالى، فهي مخلوق عجيب في ذاته وفي غايته، وفي قيمته.

ولقد جعل الله تعالى العلم بالروح من العلم الخاص به ومن أمره، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥][٢٦].

ومهما تكلمنا في هذه النفس أو الروح فإن الكلام فيها يبقى قاصرا عن إدراك حقيقتها وكنهها، ومع ذلك فلا مانع أن نتأمل شيئا مما ورد في النصوص عنها وصفتها لعلنا نظفر بشيء من ذلك.

ولعل من أهم النصوص التي تقابلنا هنا حديث مهم في هذا الباب، وهو قوله ﷺ «أصدق الأسماء الحارث وهمام»[٢٧]، والمتأمل هنا يجد أن اسم (الحارث) يدل على العمل، وأما اسم "همام" فهو من الهم، وهو أول الإرادة، فالإنسان على هذا متحرك بالإرادة [٢٨].

إذا فالله تعالى جعل النفس الإنسانية حية، فهي متحركة، إذ الحركة لازمة للحياة، وهنا يفيد الحديث أن حركتها تكون بالمحبة والإرادة، إذ هذا معنى وصف الإنسان بأنه همام[٢٩].

فمن أهم خصائص هذه النفس الإرادة، فهي تريد وتختار، وهذا مما منحه الله تعالى للإنسان فجعله مريداً، وإرادته هذه قابلة للعنصرين الخير والشر[٣٠]، وهذا كله يقرر أن الإنسان حساس متحرك بالإرادة [٣١]، وأن من اللوازم الذاتية للنفس هو كونها مريدة، ولا يتصور أن تكون نفس الإنسان غير مريدة، فلابد إذا – بناء على ما سبق – أن يكون للنفس مطلوب مراد بضرورة فطرتها [٣٢].

وتقرير أن النفس متحركة بالإرادة يقرر أن كل الأعمال الصادرة عن العبد إنما صدرت عن تلك الإرادة، فإن الإرادة هي التي تستلزم الفعل، فالفعل صادر عنها ويتبعها، ولذلك يؤكد ابن تيمية أن أصل كل فعل في العالم من المحبة والإرادة، وهما أصل كل حركة في العالم [٣٣].

والإرادة ترجع في الأساس إلى المحبة، إذ لابد أن تنتهي كل الإرادات عند المحبة، فإن الحب هو الذي يحرك إرادة القلب، وعليه فالمحبة التامة تستلزم الإرادة الجازمة، فكلما قويت المحبة طلب القلب فعل المحبوبات العبودية[٣٤].

ومن المسائل المهمة المتعلقة بموضوع هذه القاعدة، بيان قوتي النفس، وأن للنفس قوتان: قوة علمية، وقوة عملية، فالقوة العلمية هو ما يسبق العمل من تصورات وعلوم، والقوة العملية هي القوة الإرادية – وهي التي استلزمت أن يكون للإنسان مرادا – وما تقتضيه من عمل الجوارح.

وهاتان القوتان متلازمتان، فإنه متى ما حصل العلم الجازم حصلت المحبة التامة، وبالتالي تحصل الإرادة الجازمة، وإذا حصلت الإرادة الجازمة وقع الفعل إثر ذلك إذا كان العبد قادرا [٣٥].

فالمحبة والإرادة لابد لهما من علم وتصور يقتضيهما ويسبقهما، وكذلك لابد من عمل يقتضيانه ويستلزمانه، وهو عمل الجوارح، فهناك تلازم عظيم بين عمل الباطن– وهو حركة النفس أو عمل القلب – وعمل الظاهر.

وكمال النفس إنما يكون بتكميل هاتين القوتين إذا كانتا علما نافعا وعملا صالحا، وسيأتي أن أصل هذين الأمرين هو العلم بالله وعبادته.

المطلب الثاني: العبودية لله تعالى أصل الحرية الحقيقية.

الكلام في هذا الأمر وهو بيان حقيقة الحرية في العقيدة الإسلامية يبدأ بتقرير نتيجة ما تقدم في المبحث الأول من بيان حقيقة العبودية، فإن الحرية تقوم على العبادة بمفهومها العام، والمتضمن للأصلين الكبيرين الذين تضمنتهما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، الحب والتأله، وكذلك التوكل والاستعانة.

إن الأصل في الحرية هو حرية القلوب من التعلق بشيء غير الله سبحانه، «إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده، ولهذا يقال: العبد حر ما قنع، والحر عبد ما طمع...ويقال: الطمع غل في العنق، قيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل[٣٦]».

وحرية القلب تلك تحصل بتعبيده لله رب العالمين، فبالنظر إلى الأصول التي تقوم عليها الحرية الحقيقية نجد أن أهمها هنا هو ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهو تألهه تعالى وحبه، فإنه إذا كانت العبادة هي أعظم الواجبات، وكان أصلها الحب، ولابد لأنفسنا من محبوب، وكان الواجب على العبد إذا أن يحرك نفسه وقلبه إلى الله تعالى بالحب الكامل فيكون تعالى أعظم محبوب له، كان العبد المحقق لهذه العبودية حرا لا يستعبده أي شيء غير الله تعالى، وإلا فإن نفسه ستتحرك إلى محبوب آخر – هو في الحقيقة معبود آخر – فيقع في الرق والشرك والعذاب.

إن من المهم بيانه هنا أنه لا حياة ولا حرية للنفس ولا للقلب ولا نجاة لهما إلا بتحقيق هذا الحب والتأله، فالقاعدة المقررة هنا هي أنه «كلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه[٣٧]»، والعكس بالعكس «كلما كان فى القلب حب لغير الله كانت فيه عبودية لغير الله بحسب ذلك، وكلما كان فيه عبودية لغير الله كان فيه حب لغير الله بحسب ذلك، وكل محبة لا تكون لله فهي باطلة وكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها[٣٨]».

وبناء على هذا فرق القلب لغير الله تعالى إنما يحصل بسبب عدم حركة النفس إلى الله تعالى، فإنها إذا لم تتحرك إلى الله تعالى بالحب والذل فلن تسكن بل ستتحرك حتما إلى مطلوب مقصود محبوب آخر غير الله تعالى فيسترقها، بل قد يكون توجهها إلى عدة معبودات فيحصل الشقاء والعناء واختلاف القلب، وشتان ما بين الحالين، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

فيجب أن نحرك قلوبنا إلى الله تعالى بموجب أمره لنا، وبموجب ما فطر عليه أنفسنا من حبه وتألهه، فإذا حققنا هذه الفطرة كنا أعظم الناس سعادة وحرية، وأما إذا لما نحقق ذلك فلم نحرك أنفسنا وقلوبنا إلى الله تعالى، فإن أنفسنا لن تقف، بل ستبحث عن الحب، فتتحرك إلى

غير الله تعالى وتحب شيئا آخر غيره، ليقع الشرك، وليكون هذا الحب عذابا تعذب به تلك النفس المنصرفة عن حب الله تعالى.

يقول ابن تيمية رحمه الله «وكل من استكبر عن عبادة الله لابد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة.. وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته بل استكبر عن ذلك فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبدا لذلك المراد المحبوب، إما المال وإما الجاه وإما الصور وإما ما يتخذه إلها من دون الله، كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين، أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أربابا، أو غير ذلك مما عبد من دون الله..».

ثم يقول «بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارا عن عبادة الله كان الرجل أعظم إشراكا بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره أو حاجته إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود، مقصود القلب بالقصد الأول، فيكون مشركا بما استعبده من ذلك[٣٩]».

ويمثل هنا بفرعون الذي هو من أعظم الخلق استكبارا عن عبادة الله كان مشركا[٤٠].

والإنسان عموما متى ما شغف بحب غير الله تعالى كان فيه من التعبد لذلك المخلوق بقدر حبه له[٤١]، وهذا حال حتى المقصرين في حب الله تعالى من المسلمين، وليس فقط الممتنعين تماما أو المشركين الشرك الأكبر، فقد «يكون خاصا في المسلمين، مثل من غلب عليه حب المال، أو حب شخص أو حب الرياسة حتى صار عبد ذلك، كما قال: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطى رضي، وإن منع سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**[٤٢]»، وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه وماله، بحيث يكون عنده مخدومه من الرؤساء ونحوهم أو خادمه من الأعوان والأجناد ونحوهم أو أصدقائه أو أمواله هي التي تجلب المنفعة الفلانية وتدفع المضرة الفلانية، فهو معتمد عليها ومستعين بها[٤٣]».

بل واتباع الهوى هو في الحقيقة عبادة له، فهو رق يجب التحرر منه، كما قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان:٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ

﴿ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣].

وكذلك طاعة الشيطان في معصية الله تعالى هو نوع من عبادته، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[يس:٦٠]، وقال تعالى حاكياً خطاب خليله إبراهيم عليه السلام لأبيه ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ [مريم:٤٤].

وهذه الحرية من جهة الحب لابد أن تجتمع مع الحرية من جهة التوكل والاستعانة، وهي مستلزمة لها في الأصل، ولذلك ينبه ابن تيمية رحمه الله تعالى على أن أصل الإشراك العملي هو الإشراك في المحبة(٤٤).

لكن هذه الحرية التي من جهة التوكل تنشأ أيضا من الإيمان التام بربوبية الله تعالى وغناه وملكه التام وعلمه الواسع، وأن على العبد بناء على ذلك وعلى حبه لله تعالى الاستغناء بربه عن كل أحد، حتى عن نفسه وحوله وقوته، فهو مع بذله للأسباب الشرعية والطبيعية يكون معتمدا غاية الاعتماد على ربه تعالى، مع ثقته التامة به تعالى، وهذان – كمال الاعتماد على الله تعالى والثقة به – أصلا التوكل والاستعانة بالرب عز وجل، فيرفع العبد كل حاجاته إلى ربه مستغنيا عن كل أحد.

يقول ابن تيمية «وكلما طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لاسيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمدا إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وأما على ساداته وكبرائه كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم، ممن هو قد مات أو يموت..

وكل من علّق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك..(٤٥)».

وهكذا فإن القلب لا يستغني «عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه ولا يوالي إلا من والاه الله ولا يعادى إلا من عاداه الله ولا يحب إلا الله ولا يبغض شيئا إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله فكلما قوى إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك[٤٦]».

وتقرير كل ما سبق يفيد أن أقرب الطرق إلى الله سبحانه وتحقيق الحرية هو العبودية له بإظهار الافتقار إليه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

والتكبر والتجبر والاستغناء عنه تعالى من أعظم أسباب الإبعاد والطرد عنه، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام:٤٣]، وقال عز وجل ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون:٧٦] وقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]، وقال: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:٦]، وهو يوجب كونهم أرقاء لمعبودات غير الله تعالى، وعبادا لها، فيتعذبون بذلك الرق وتلك العبودية.

المبحث الثالث
تحرير الإنسان في القرآن الكريم

بعد تقرير حقيقة الحرية والتحرر وعلاقتها بالعقيدة وأساسها العبودية لله تعالى؛ يبقى الكلام هنا في ثمرة عملية للموضوع، وهو دعوة القرآن إلى تحرير النفوس سواء في الأفراد أو في الأمم والجماعات.

ويجب التأكيد هنا أن التحرير القرآني للنفوس يقوم على ما تقدم تقريره من بيان معنى الحرية الحقيقية، وأنه لا تحرير حقيقي إلا ببيان ذلك المفهوم ثم تطبيقه واقعا بالدعوة والتربية والمجاهدة للنفوس.

لقد أنزل الله تعالى كتابه الكريم على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وكان نزوله مؤثرا غاية التأثير في تحرير هذه الأمة المسلمة، على المستوى الفردي والمستوى الجماعي.

لقد دعا القرآن إلى تحرير النفوس بأساليب متنوعة – ترجع في الأساس إلى ما تقدم – لكن يمكن القول هنا إنه وبالتأمل في الآيات القرآنية نجد أنها إجمالا دعت إلى هذا التحرير بأسلوبين عامين هما:

الأسلوب الأول: الخطاب المباشر لتحرير النفوس:

والمقصود بهذا أي الخطاب القرآني الذي يؤثر في النفوس حتى يثمر فيها تحررها من العبودية لغير الله تعالى، وجعلها متوجهة إليه تعالى وحده، ونجد أن خطابه هنا يعتمد على المعاني العقدية التي ترجع إلى ما ذكرنا من أصول العقيدة المتعلقة بالحرية، والقرآن مليء بهذا، وللآيات في هذا الأسلوب أنواع كثيرة:

أولا: آيات تعظيم الله تعالى وتقرير ربوبيته وملكه وسلطانه، فهي تصب في صلب تحرير النفس.

ثانيا: آيات أسمائه تعالى الحسنى وصفاته العليا، والتي تستلزم غاية الاستلزام تعظيمه تعالى و رجاءه والخوف منه مع استلزامها في الوقت نفسه لحبه ووده وتألهه والأنس به، وهذا هو أعظم محررات القلوب والنفوس.

ثالثا: آيات ذكر نعمه وآلائه ورحمته ووده وبره هي كذلك تحرر القلوب بملئها بموجبات حبه ولوازم هذا الحب من بقية أعمال القلوب.

رابعا: الآيات الداعية إلى إخلاص العبودية لله تعالى وحده، وكذلك الداعية إلى التعبد له تعالى بأنواع العبادات، مثل: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وذكره تعالى، وقيام الليل، والصبر مع الذين يدعونه، وقراءة القرآن، وعمارة المساجد.

خامسا: الآيات الواردة في ذم الهوى والنفس الأمارة بالسوء، فهي دعوة في الحقيقة للتحرر من سلطان ذلك الهوى وتلك النفس.

سادسا: آيات ذم الجاهليات وتقبيحها، فهي تحرر القلوب من سلطان كل الجاهليات، وأعظم الطواغيت هم أرباب جاهليات.

سابعا: آيات الدعوة للعمل والبذل والجهاد ومراغمة الأعداء وعدم الهوان أو الحزن مع وجوب الثقة في الله تعالى وحسن الظن به وبنصره وتأييده هو من أعظم دواعي التحرر والانفكاك من كل قيود الرق والاستكانة للأعداء.

ثامنا: وهو من أهمها؛ التذكير باليوم الآخر، وأنه الحياة الحقيقية، وأن الدنيا كلها بما فيها من لذائذ ونعيم لا تساوي شيئا مقابل الآخرة، وأن على المسلم أن يقدم آخرته على دنياه.

تاسعا: الإيمان بالقدر، وأن ما قدره الله واقع لا محالة، وما لم يقدره فلن يقع، وهذا أيضا داعي كبير لتحرير النفوس، وفكها من التعلق بمجرد الأسباب المادية الظاهرة.

الأسلوب الثاني: ذكر القصص والشواهد والأمثلة على النفوس المتحررة في القرآن:

أي النفوس التي حررها توجهها إلى الله تعالى وحده بالحب والثقة التامة توكلا ورجاء واستعانة وطمعا فيما عنده، وأعظم قصص القرآن في تربية الفرد والجماعة على طلب الحرية هي قصة تربية الجيل الأول من هذه الأمة، وتتبع نزول الآيات وأسباب ذلك يحكي قصة عظيمة لتحرير أمة كاملة بأفرادها وجماعاتها.

لكن هذا يحتاج إلى رسائل علمية ولا تكفي عدة بحوث من جنس هذا البحث فضلا عن أن يكفي فيها بحث واحد، ولذلك رؤي في هذا البحث الاقتصار على شيء مما ذكره الله تعالى في حكايته لأمة من الأمم، وهي أمة نبي الله موسى عليه السلام، وهي الأمة التي هي أكثر الأمم المذكورة في القرآن والسنة.

وسيكون الكلام في هذا المسألة في نوعين هما: تحرير الفرد في القرآن الكريم، وتحرير الأمة في القرآن الكريم.

المطلب الأول- النوع الأول: تحرير الفرد في القرآن الكريم.

الأصل في الخطاب القرآني هو أنه للفرد، فكل إنسان سيبعث فردا، ويحاسب وحده، وصلاح المجتمعات بصلاح أفرادها، ولذلك فالأصل هو إصلاح الأفراد أولا، وإصلاح الفرد يكون بإصلاح نفسه وقلبه أولا، وذلك الإصلاح هو عين ما قرره المطلب السابق، من وجوب تحريك النفس إلى الله وحده بالحب والتوكل والاستعانة، والذي هو تحريك للنفوس بحسب فطرتها الأصلية، وأن سعادتها وحريتها يكون بحسب ذلك، فيكون تحرير النفوس بتعبيدها لرب العالمين وحده بالحب الكامل المستلزم لكل أعمال القلوب، فإنه تحرير للنفوس من الرق والعبودية لأي شيء غير الله تعالى، سواء من الأصنام والأوثان المعبودة، أو حتى من الأموال والمناصب والصور الجميلة ونحوها، بل حتى من الهوى والنفس الأمارة بالسوء.

والخطاب القرآني يدعو إلى هذا التحرير الكامل والتام، والآيات في الأسلوب الأول هي للفرد أصلا، والواجب على العبد إخلاص العبودية لله تعالى، وتوجيه نفسه إليها، وتخليصها من التعلق بأي شيء غير الله تعالى، حتى من نفسه وشهواه، فالله تعالى يذم متبعي الهوى بقوله ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال النبي ﷺ «**تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميلة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**[٤٧]»، فقد يكون الرق والعبودية لغير الله تعالى في نفوس بعض المسلمين أيضا- كما تقدم.

وعودا على ما ذكره الله تعالى في قصة أمة موسى عليه السلام، نقتصر هنا على قصة سحرة فرعون، وهي شاهد على تحرير الفرد، فإن ما قام به السحرة هنا يجيء بصفتهم أفرادا، وأما اجتماعهم فلم يكن له تأثير واضح في مسار القصة.

تكرر ذكر قصة هؤلاء السحرة في عدة مواطن، مفصلة ومجملة، وهي قصة من أعظم ما يضرب به من القصص على الحرية الحقيقية، ويمكن إجمال أهم معالم القصة فيما يلي:

المعلم الأول: اجتماع السحرة وهدفهم منه:

لقد كان كيد فرعون وملأه عظيما في جمعه للسحرة، وقد جمع عددا كبيرا جدا، حتى ذكر المفسرون أن عددهم بالآلاف[٤٨]، جاؤوا بكل قوتهم وخبرتهم في السحر لتحدي موسى عليه السلام، لكنهم لم يكونوا أصحاب عقيدة يدافعون عنها، إنما هم مأجورون لفرعون الطاغوت، يعملون بالأجرة، وكان سحرهم عظيما استطاعوا به فعلا استرهاب الناس إلى درجة أن يحصل نوع خوف في نفس موسى عليه السلام من أن يغلب السحرة، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ ٱلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف:١١٣-١١٦]، وقال عن موسى عليه السلام ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ [طه:٦٧]، إذا لم يكن همهم إلا دنيا فرعون، كانوا يريدون أجرا وتقربا منه، فجاءوا بكل جبروتهم واستكبارهم وتقتهم ليتحدوا موسى عليه السلام.

المعلم الثاني: حالهم بعد معاينتهم لآية موسى عليه السلام:

لقد تبين لهم الحق بعد معاينتهم لآية موسى عليه السلام، وعلموا أن صنيعا مثل ما حصل بعد رمي موسى لعصاه لا يمكن أن يكون إلا بخلق خالق عظيم، وهم أهل هذا الفن الذين يدركون إسراره وحقائقه، والعجيب هنا هو تلقيهم العجيب لتلك الآية، يقول تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧-١٢٢]، وقال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الشعراء:٤٥-٤٦]، لقد كانت استجابتهم سريعة جدا، فبمجرد معاينتهم للآية وعلمهم بالحق، يقعون ساجدين لله تعالى، فيعلنون عبوديتهم وخضوعهم له وحده تعالى، ويعلنون إسلامهم، واتباعهم لموسى عليه السلام، رغم ما يعنيه كل ذلك من حرمانهم من كل أهدافهم التي جاءوا من أجلها، بل وما قد يأتيهم من أذى الطاغوت فرعون.

المعلم الثالث: موقفهم من تهديد فرعون:

تصل القصة إلى أهم حلقاتها، وهي موقف السحرة من التهديد الشديد من الطاغوت لهم، إنه موقف سجله القرآن لكي يصبح منارا ومثالا يجب الاحتذاء به، ويكفي هنا نقل كلماتهم كما حكاها القرآن لتدلنا بوضوح إلى أي مدى تحررت نفوسهم بالإيمان والعبودية لله تعالى، يقول تعالى: ﴿ قَالُوٓا إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦]، وقال عز وجل: ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه:٧٢-٧٦].

لقد تضمنت كلماتهم غاية التعلق بالله تعالى والعبودية له، مع الانعتاق من التعلق بفرعون، سواء من الحب أو الطمع أو الخوف والخشية، فلم تعد تهديدات فرعون تهزهم أو تخيفهم، فيقف أمامهم عاجزا عن استرقاقهم مرة أخرى «..يقف الطغيان عاجزاً أمام الإيمان، وأمام الوعي،

وأمام الاطمئنان..، يقف الطغيان عاجزاً أمام القلوب التي خيل إليه أنه يملك الولاية عليها كما يملك الولاية على الرقاب، ويملك التصرف فيها كما يملك التصرف في الأجسام، فإذا هي مستعصية عليه، لأنها من أمر الله لا يملك أمرها إلا الله، وماذا يملك الطغيان إذا رغبت القلوب في جوار الله؟ وماذا يملك الجبروت إذا اعتصمت القلوب بالله؟ وماذا يملك السلطان إذا رغبت القلوب عما يملك السلطان!

إنه موقف من المواقف الحاسمة في تاريخ البشرية، هذا الذي كان بين فرعون وملأه، والمؤمنين من السحرة السابقين، إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية، بانتصار العقيدة على الحياة، وانتصار العزيمة على الألم، وانتصار (الإنسان) على (الشيطان)، إنه موقف حاسم في تاريخ البشرية بإعلان ميلاد الحرية الحقيقية، فما الحرية إلا الاستعلاء بالعقيدة على جبروت المتجبرين وطغيان الطغاة، والاستهانة بالقوة المادية التي تملك أن تتسلط على الأجسام والرقاب وتعجز عن استذلال القلوب والأرواح، ومتى عجزت القوة المادية عن استذلال القلوب فقد ولدت الحرية الحقيقية في هذه القلوب..[٤٩]».

المطلب الثاني- النوع الثاني: تحرير الجماعة في القرآن الكريم.

يستمر البحث مع قوم موسى عليه السلام، ولكن هنا من جهة الأمة والجماعة، والقارئ الكريم يعلم الحالة التي كانت تعيشها أمة موسى عليها السلام تحت طاغوتية فرعون، وكيف نصرهم الله تعالى أخيرا عليه وأهلكه وجنوده، لكن هذا النصر لم يأت بلا عمل جاد ولا بذل صادق، ولعله يكفي هنا إيراد موضعين في القرآن يلخصان لنا ما يراد تقريره هنا، وهو أن التحرير الحقيقي يبدأ بتحرير النفوس، تحريرها بالعقيدة والتوحيد، أو التحرير الذي يبدأ من تحرير النفوس بالعبودية المتضمنة لكمال الحب والذل والتوكل والاستعانة.

الموضع الأول:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

﴿ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾ [القصص:٤-٦].

هذه الآية في سورة مكية، نزلت أثناء ما كان المسلمون مع نبينا صلى الله عليه وسلم يعانون الاستضعاف في تلك الفترة، فتأتي هذه الآيات لتربي وتعد ذلك الجيل الأول في هذه الأمة وتصبره في أثناء تلك المعاناة، ثم يكون خطابا تتربى جميع أجيال الأمة بعده.

وقد جاءت هذه الآيات كمقدمة لقصة نبي الله وأتباعه مع فرعون وملأه، فهي تلخص القصة كاملة قبل إيرادها، تجيء هذه الآيات وبتصوير بديع فتذكر حالين متضادين غاية التضاد، فأما الحال الأولى فهي حالهم مع فرعون من تسلطه التام عليهم، واستضعافه البالغ لهم، ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، إنها حالة طاغية من الطاغوتية والاستعباد والاستكبار واجهها أولئك، ويجيئهم موسى عليه السلام وهم في هذه الحال، جاءهم وهم يواجهون تلك السلطة الطاغوتية فيقودهم ليخرجهم عليها ويفكهم من أسرها.

ونجد في الآيات بعد ذلك وعدا إلهيا عظيما، ونرى حالا تجيء واقعا وفقا لذلك الوعد، إنها حال يريدها الله تعالى لهم، فهي واقعة لا محالة، وهي تضاد تلك الحال الأولى تماما، يقول تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦ ﴾، هؤلاء المستضعفون لن يكونوا مجرد حاصلين على الحرية، بل سيكونون هم الأئمة الوارثين، وبعد كونهم مهزومين سيصبحون المنصورين والممكن لهم في الأرض، فما سبب النقلة؟ وما طريقتها ومنهجها؟

إنها حالة من الحرب تقوم بين الطاغوتية والنبوة، بين السلطة والقيادة، ونرى القيادة تنتصر أخيرا، ولم يكن موسى عليه السلام ليكون متسنما للقيادة لولا أن ربط أمته بالغاية العظيمة التي بعث بها داعيا إليها ومربيا عليها، إنها العبودية التامة لله تعالى، المتضمنة للحب والاستعانة والتوكل، وستأتي بعض كلماته في الموضع التالي.

الموضع الثاني:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٧-١٢٩].

والشاهد المهم في هذه الآيات هو في الجملة التي حكاها الله تعالى لنا من كلام أتباع موسى عليه السلام، وهي ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾، فقد أوذوا على يد فرعون مرتين، الأولى قبل مجيء موسى عليه السلام- وقد جاء ذكرها في الموضع السابق- والثانية بعد مجيئه[٥٠]، لكن هناك فارقان في تلقي بني إسرائيل لأذى فرعون في المرتين:

الأول: سلبية موقفهم أمام الأذى الأول دون الثاني، فإنهم كانوا يعيشون حالة من الهوان والذل والرضا بالواقع دون أي عمل ولا نية للخروج من إصر وأغلال فرعون، لكنهم لم يكونوا كذلك الأمام الأذى الثاني، بل نراهم يراغمون ويجاهدون ويصبرون ويتَحَدَّون طاغوتية فرعون، ولذلك يزيدهم موسى عليه السلام تثبيتا، فيقول كما حكاه الله تعالى عنه ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ﴾، وهذا الخطاب من موسى عليه السلام يتضمن ربطهم بالله تعالى والصبر على ذلك، وقريب من كلمته هنا ما حكاه الله تعالى عنه ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤]، وهذا أساس للحرية الحقيقية كما تقرر في بحثنا.

الثاني: أنهم لم يكن لهم أية أهداف واضحة في حالتهم الأولى، بل كانوا يعيشون هذه المرحلة دون أي مشروع يتبنونه، على الأقل للانفكاك من طاغوتية فرعون الذي صنع بهم ما صنع.

لكنهم كانوا أمام الأذية الأخرى أصحاب رسالة ومهمة وغايات عظيمة ينشدونها، لقد قادهم موسى عليه السلام إلى غاية واحدة مشتركة بينهم، وهي العبودية لله تعالى بكل متضمناتها ولوازمها، نقرأ ذلك في كلام موسى عليه السلام لهم ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

وقوله﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وهذا الخطاب يتضمن أيضا ربط العبد بالمعبود سبحانه ألوهية وربوبية.

لقد تغيرت نفسية أتباع نبي الله موسى عليه السلام بسبب تربيتهم على التوحيد والعبودية التي دعا إليها موسى عليه السلام، ولذلك صبروا وثبتوا، فلم يعد طغيان فرعون ولا سلطته يقفان حاجزا أمامهم، والنقلة الكبيرة التي حصلت في موقفهم أمام هذا الطغيان لم تكن حصيلة مجرد مطالبات مادية، أو خطابات سياسية بحتة، إنها نتيجة أعمال وجهود عقدية تربوية جادة، قامت على ربط الفرد والأمة بالله عز وجل حبا واستعانة وتوكلا ورجاء، كما لمسناه في كلماته نبي الله موسى عليه السلام، وبالتالي رأينا هذه النقلة العجيبة.

ختاما:

إن قصة موسى كما قصة نبينا ﷺ كما قصص كل الأنبياء ترسم لنا منهجا صحيحا متكاملا لتحرير الأمة بل وكل البشرية، والحيدة عنه إنما هو في الحقيقة ابتعاد عن الحرية والتحرير، وقد أمر الله تعالى نبينا عليه الصلاة والسلام باقتفاء هدي الأنبياء في الدعوة، فقال تعالى بعد ذكر جانب من قصة إبراهيم عليه السلام وذكر النبيين ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام:٩٠]، وهذا الأمر ولا شك هو أمر لنا نحن باقتفاء أثرهم، وهذا المنهج الدعوي للأنبياء هو عينه المنهج الواجب سلوكه لتحقيق الحرية وتحرير الإنسان والأمة والبشرية.

وأوصي هنا كل المثقفين المسلمين والدعاة والنخب العودة إلى المنهج القرآني في تحرير النفوس وإصلاحها، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وأصحابه إلى يوم الدين.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيد السادات محمد وعلى اله وصحبه وسلم وبعد هذا التجوال الطويل والماتع في عقيدة التغيير والاصلاح لا يسعني الا ان اتوج البحث بهذه الخاتمة النافعة والماتعة.

١. الإيمان الجازم بالله، وما يجب له في ألوهيَّته وربوبيَّته، وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَر خيره وشرِّه.

٢. امتازت العقيدة الاسلامية بمزايا خاصة جعلتها تتصدر الاصلاح والتغيير لما لها من انسجام مع الفطر السليمة.

٣. فالعقيدة هي دماغ التصرفات، فإذا تعطل جزء منها أحدث فسادا كبيرا في التصرفات، وانفراجا هائلا عن سوي الصراط.

٤. الأنبياء لهم دور في الاصلاح والتغيير، وأن لهم منهجا كبيرا مرسوما في ذلك، ويكفي هنا الكلام في قاعدة هذا المنهج وأسه، وهو البدء بالعقيدة دعوة وتربية.

٥. بينت العقيدة المقاصد الاساسية منها، وجوب العبودية لله تعالى وتألهه وحبه، ووجوب التوكل على الله تعالى.

٦. لقد دعا القرآن إلى تحرير النفوس بأساليب متنوعة.

٧. الأصل في الخطاب القرآني هو أنه للفرد، فكل إنسان سيبعث فردا، ويحاسب وحده، وصلاح المجتمعات بصلاح أفرادها.

٨. أن الله تعالى خلقنا لعبادته، وأن أصل العبودية هو الحب، وأنه تعالى خلق أنفسنا مفطورة على الحب.

٩. تضمنت قاعدة البحث ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أصلين مهمين هما الأول: وجوب التوكل عليه والاستعانة به، والثاني: وجوب عبادته تعالى والإنابة إليه.

١٠. تميزت العقيدة الاسلامية بعدة خصائص منها: الربانية والوضوح والكمال وموافقتها للفطرة السليمة.

١١. وصل اللهم وسلم وبارك ومجد وكرم وعظم على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم.

هوامش

(١) انظر: (الصِّحاح ولسان العرب، مادة عَقَدَ).

(٢) انظر: (شرح العقيدة الواسطية ١/٥٠).

(٣) انظر: (مباحث في عقيدة أهل السُّنة والجماعة، د. ناصر العقل).

(٤) انظر: العقيدة الاسلامية وأثرها في بناء الجيل.

(٥) انظر: أعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ الحكمي ص(١١٥-١١٦).

(٦) رواه البخاري (١٤٢٥، ٤٠٩٠)، ومسلم (١٩).

(٧) مجموع الفتاوى (٥/٥١٤-٥١٥)، وانظر منه أيضا (١٤/٣١).

(٨) انظر العبودية (١٠/١٩٥).

(٩) مدارج السالكين - (٢/١١٣).

(١٠) العبودية - ضمن مجموع الفتاوى (١٠/١٩٣- ١٩٤).

(١١) العبودية (١٠/١٥٣) - ضمن مجموع الفتاوى-، وانظر منه (١٠/٢٠٣).

(١٢) انظر العبودية (١٠/١٥٣).

(١٣) انظر المرجع نفسه (١٠/١٥٧)، وقاعدة في المحبة ص (١٤).

(١٤) المرجع نفسه (١٠/١٥٣) - ضمن مجموع الفتاوى-.

(١٥) قاعدة في المحبة ص(١٠)، وانظر منه ص(٩٨).

(١٦) انظر منهاج السنة (٥/٣٢٩).

(١٧) انظر مجموع الفتاوى - (١٥/١٦٣).

(١٨) انظر قاعدة في المحبة ص(٥٧).

(١٩) انظر المرجع نفسه ص(٣٢، ٣٧، ٧٤) والعبودية (١٠/٢١٤).

(٢٠) قاعدة في المحبة ص(١١).

(٢١) انظر العبودية (١٠/١٩٤-١٩٦).

(٢٢) منهاج السنة (٥/٣٢٥)، وانظر: قاعدة في المحبة ص(١١، ٧٤)، والعبودية (١٠/٢١٤).

(٢٣) رواه البخاري في صحيحه (١/٤٦٥)، برقم (١٣١٩)، ومسلم (٤/٢٠٤٧) برقم (٢٦٥٨).

(٢٤) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (٢٥٧٧-١٣٩٣).

(٢٥) مجموع الفتاوى (١٠/٢٥٧).

(٢٦) يقرر ابن تيمية أن النفس هي الروح، فهما يطلقان على مسمى واحد، ويستدل بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفجر:٢٨]، فالنفس هنا هي الروح

التي تقبض (مجموع الفتاوي ٢٢٥/٤)، وهو يختار قول سلف الأمة وجمهورها في حقيقة الروح، وأنها: عين قائمة بنفسها تذهب وتجيء وتنعم وتعذب..(مجموع الفتاوى (٢٢٧/٤).

(٢٧) رواه أحمد (٣٤٥/٤)، وأبو داود: (٣٥) كتاب الأدب، (٦٩) باب في تغيير الأسماء رقم (٤٩٥٠) (٢٣٦/٥)، والحديث صححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم (٤١٤٠)، (٩٣٥/٣)، وانظر السلسلة الصحيحة (٣٣/٣-٣٤)، رقم (١٠٤٠).

(٢٨) انظر العبودية – ضمن المجموع-(١٩٦/١٠)، منهاج السنة (٦٤/٣)، درء التعارض (٣٧٣/٩).

(٢٩) انظر مجموع الفتاوى (٢٠٥/٨، ٢٠٦) و(٢٩٤/١٤ – ٢٩٥، ٢٩٧) و (٣٩١/١٥) و (١٦٩/٢)، ومنهاج السنة (٦٣/٣ – ٦٤)، والاستقامة (٢٩٤/٢)، وزاد المعاد (٣٤٠/٢).

(٣٠) انظر مجموع الفتاوى (٨ / ٢٠٦)، وشفاء العليل (٥٩/٢، ٦٢).

(٣١) انظر العبودية ضمن مجموع الفتاوى (١٩٦/١٠)، مجموع الفتاوى (١٢٣/٢٠)، منهاج السنة (٦٣/٣-٦٤).

(٣٢) انظر الدرء (٤٦٥/٨).

(٣٣) انظر في هذا كله قاعدة في المحبة ص (٧، ٩، ١٤، ١٦، ٤٩، ١٣٦، ٢١٠).

(٣٤) انظر العبودية – ضمن مجموع الفتاوى ص(١٩٢/١٠).

(٣٥) منهاج السنة (٦٩/٣-٧٠)، وانظر منه (٥٠/٣-٥١) والعبودية (١٩٢/١٠).

(٣٦) العبودية (ضمن مجموع الفتاوى (١٨١/١٠).

(٣٧) العبودية ١٩٣/١٠.

(٣٨) المرجع نفسه (٢١٣/١٠).

(٣٩) نفسه – مع اختصار يسير- (١٩٥/١٠-١٩٨).

(٤٠) انظر العبودية – ضمن مجموع الفتاوى (١٩٧/١٠).

(٤١) انظر قاعدة في المحبة ص(٧٦، ٩٧-٩٩)، والعبودية (١٨٠/١٠).

(٤٢) رواه البخاري: الجهاد والسير (٢٨٨٧) ، وابن ماجه: الزهد (٤١٣٦).

(٤٣) مجموع الفتاوى (٣٥/١).

(٤٤) انظر قاعدة في المحبة ص(٦٩).

(٤٥) العبودية – مع اختصار يسير جدا- (١٠/١٨٤-١٨٥).

(٤٦) العبودية (١٠/١٩٨).

(٤٧) تقدم تخريجه ص (١٥).

(٤٨) قيل (١٥٠٠٠) وقيل (٣٠٠٠٠)، انظر: تفسير ابن كثير (٣/٤٥٧).

(٤٩) في ظلال القرآن (٣/٢٧٣).

(٥٠) انظر تفسير ابن كثير (٣/٤٦٠) – ط.سلامة-، والتحرير والتنوير (٩/٦٩).

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

السنة النبوية:

- الاستقامة، أحمد بن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٣هـ.
- التحرير والتنوير، محمد بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، ت. سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن تيمية، تحقيق: د.علي حسن ناصر وزملائه ، نشر دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ.
- درء تعارض العقل والنقل، أحمد بن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤٠١هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وزميله، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٤، ١٤٠٧هـ.
- سنن أبي داود، الحافظ أبي داود سليمان السجستاني، ت عزت الدعاس وزميله، دار الحديث، بيروت، ط١، ١٣٨٨ هـ.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٥هـ.

- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية، ت مصطفى الشلبي، مكتبة السوادي، جدة، الثانية ١٤١٥ هـ صحيح البخاري
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، ١٩٥٥م.
- صحيح سنن أبي داود، الشيخ ناصر الدين الألباني
- العبودية – ضمن مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية –.
- قاعدة في المحبة، أحمد بن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، نشر مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، جمع عبد الرحمن بن قاسم وابنه، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢ هـ.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، دار الحديث القاهرة.
- المسند، للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، الطبعة المصرية القديمة.
- منهاج السنة النبوية، أحمد بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٠٦هـ.